الفصل الرابع

الهجـــــرة الى يثرب

أمر الرسول (ص) أصحابه، من أهل مكة، أن يلحقوا بيثرب، وسيجدون عند مسـلميها، من الأوس والخزرج، المنعة والحماية، وكأن الرسول (ص) قد أراد بذلك أن يؤسس للإسلام قاعدة قوية، وحصناً منيعاً، يتجمع المسلمون فيه، ليبدأ منه التنظيم، ثم الانطلاق. ولم تكن الغاية من الهجرة الفرار من اضطهاد قريش فقط، ولو كان الأمر كذلك، لما هاجر المسلمون الأقوياء، الذين ما كانوا يخشون شر قريش، ولا أذاها، كعمر بن الخطاب، وحمزة، عم الرسول (ص). وإنما كان من وراء الهجرة أهداف أخرى، منها: أن تؤسس للإسلام دولة، وعاصمة، تنطلق منها قوة الإسلام، منظمة، محطمة معاقل الشرك ومراكز الوثنية.

ثارت قريش، عندما علمت بهجرة المسلمين، وقدرت المصير السيء الذي ينتظرها، عندما يلتئم في يثرب جمع المسـلمين، ويتحد مسلمو مكة مع أهل يثرب، فلا تستطيع لهم دفعاً، فوقف المشركون يردون كل من استطاعوا رده من المسلمين المهاجرين، وازدادت قريش

إمعاناً في تعذيب هذا النفر من المسلمين المستضعفين . أما الهجرة فاستمرت، وفق تعليمات محمد (ص) ، فرادى، أو جماعات قليلة العدد ، وكانت تتم بشكل سري . ولم يهاجر جهاراً إلا عمر بن الخطاب، وكان يتحدى مشركي قريش، ويقول « من أراد أن يثكل أمه ، أو ييتم ولده ، أو يرمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي ».

ادركت قريش خطر هجرة المسلمين إلى يثرب، وهي تعلم المنافسة بين مكة ويثرب ، والخلاف بين اهل مكة ، العدنانيين ، وأهل يثرب ، القحطانيين . وقد عرفت قريش ، من قبل ، خطر هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وأخفقت في منعها ، ورد المهاجرين ، إلى مكة . اما الآن ، فالخطر أشد ، وسيل الهجرة أعظم ، وقوة المسلمين في نمو وازدياد ، وقد انضمت إليهم معظم بيوت يثرب ، بأوسها وخزرجها ، وخافت من المصير الذي ينتظرها ، وينتظر قوافلها إلى الشام ، إن استقر المقام بالمسلمين في يثرب ، وتزعمهم هناك محمد بن عبدالله (ص) . ومن الطبيعي ، عندئذ ، أن يحاربهم محمد (ص) ، بأهل يثرب ، ومن التحق بهم من مسلمي القبائل الأخرى . وتداول رجال قريش الأمر ، في دار الندوة ، واختلفت الآراء ، فمن قائل : «نقبض على محمد ، ونحبسه» . ومن قائل : «ننفيه من مكة» . وانتهى بهم النقاش إلى أنه لا يحسم الأمر إلا قتله . واتفق على أن يؤخذ من كل قبيلة فتى جلد ، ويضربه هؤلاء الفتيان ضربة رجل واحد ، فيضيع دمه بين القبائل ، ولن يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً . ونزل الوحي على الرسول (ص)

بقوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ، ليثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين .»

كان محمد (ص) يمنع أبا بكر من الهجرة ، وكلما استأذنه ، كان يقول له :« لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحباً» . وعندما نزلت الآية السابقة ، وتبين للرسول تآمر المشركين على قتله ، عزم على الهجرة ، بعد ان أذن له الله بها ، وأحاط الأمر بالكتمان ، وأخبر بذلك صديقه ، أبا بكر ، وطلب إليه أن يصحبه ، في هجرته إلى يثرب ، وكان أبو بكر قد أعد راحلتين ، عهد بهما إلى رجل يرعاهما ، إلى أن يأذن للرسول بالهجرة . وأمر النبي (ص) ابن عمه ، علي بن أبي طالب ، أن ينام مكانه تلك الليلة ، وأن يتخلف عنه في مكة ، ليرد بعض الودائع إلى أصحابها . وفي الثلث الأخير من تلك الليلة ، التي عرفت أروع مغامرة في تاريخ الإسلام ، خرج محمد (ص) ، في غفلة من أولئك الذين كانوا يراقبون داره ، لتنفيذ الجريمة ، التي حيكت خيوطها ، في دار الندوة ، وقد هيأ كل منهم صارماً بتاراً ، لقتل صاحب الدعوة ، محمد (ص) . وانصرف الرسول (ص) إلى دار أبي بكر ، ومن باب صغير خلفي ، خرجا في اتجاه اليمن ، لا اتجاه يثرب ، مما لا يخطر على بال مشركي قريش ، عند اللحاق بهما . ونزل المهاجران ، محمد وأبو بكر ، في غار ثور ، في جبل إلى الجنوب من مكة ، ولم يعلم بمكانهما إلا عبدالله بن أبي بكر ، الذي كان يتسقط لهما الأخبار

نهاراً، ويحملها إليهما ليلا ، وكذلك عامر بن فهيرة ، مولى أبي بكر ، الذي كان يرعى الغنم نهاراً ، ويريحها قرب الغار ، مساء ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تحمل الطعام إليهما في الليل . ومما ذكر عن عامر بن فهيرة أنه كان ينتظر مع أغنامه ، حتى ينصرف من الغار عبدالله بن أبي بكر ، ثم يلحق به ، لتطمس الأغنام آثار أقدامه على الرمال ، فلا يستدل على الغار أحد ، وبقي صاحبا الغار فيه ثلاثة أيام .

أما قريش المشركة فقد جن جنونها ، عندما علمت أن محمداً قد أفلت من يدها ، وازداد فتيانها ، الذين أعدتهم لقتله ، غضباً ، حين علموا أن النائم في فراش محمد (ص) هو ابن عمه ، علي ابن أبي طالب ، وأسرع هؤلاء يبحثون عن محمد في كل مكان ، خاصة بعد أن جعلت قريش مائة ناقة مكافأة لمن يدلهم على محمد ، أو يأتي به .

وذكرت كتب السيرة أن الباحثين عن محمد (ص) وصلوا إلى قرب الغار ، حتى حاول بعضهم التسلق إليه ، لولا ما رأوه من مظاهر القدم على مدخله ، من وجود العنكبوت والغبار ، مما لا يسمح بالاعتقاد بوجود محمد فيه ، وكان الموت قاب قوسين أو أدنى من صاحبي الغار ، حيث كان محمد يتوجه إلى ربه بالدعاء ، وصاحبه ، أبو بكر ، يقترب من محمد ، ويلتصق به ، خوفاً مما عساه يصيبهما ، فيهمس للرسول (ص) في أذن صاحبه : « لا تحزن إن الله معنا . » ويسمع أبو بكر وقع أقدام الباحثين عنهما ، ويقول للرسول (ص) : « لو نظر أحدهم تحت قدميه ، لأبصرنا » . ويجيبه الإيمان ، ممثلا في محمد . ساعتئذ :

«يا أبابكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما ؟ ».

وفي ذلك نزلت آيات الله تقول: «إلا تنصروه، فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين، إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لاتحزن، إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم.»

زال الخطر عن صاحبي الغار، بعد مرور أيام ثلاثة، يئست خلالها قريش من الوصول إلى خبر عنهما، أو اثر من آثارهما، وهدأت عاصفة الغضب، وموجة البحث عنهما، فجاءهما الدليل، الذي كان قد استأجره أبو بكر، وهو عبدالله بن أريقط، ببعيرين لهما، وآخر له، وحملت أسماء بنت أبي بكر لهما الطعام، فلم تجد ما تعلق به الطعام في رحليهما، فشقت نطاقها، فعلقت الطعام بنصفه، وأعادت نصفه عليها، وقيل إن الرسول (ص) دعا لها أن يبدلها الله بنطاقها نطاقين في الجنة، فغلب عليها ذلك اللقب، وسميت «ذات النطاقين».

وزيادة من محمد وصاحبه ودليلهما في الحذر والحيطة، اتخذوا طريقاً إلى يثرب، غير الطريق المألوف، حيث اتجه الدليل بهما إلى الجنوب من مكة، في اتجاه البحر، ثم كان السير في اتجاه الشمال، بمحاذاة الساحل مع البعد عنه، وسبعة أيام مضت، والرسول وصاحبه، الصديق، ودليلهما، يقطعون تلك المنطقة القفر، فيسيرون الليل بطوله، ويستريحون

بعض ساعات النهار ، إلى أن بلغ الركب منازل قبيلة بني سهم ، قرب يثرب ، واستقبله شيخ القبيلة مرحباً بمقدمه .

وكانت يثرب ، قبيل وصول محمد (ص) إليها ، تعج بالمسلمين ، من الأنصار والمهاجرين ، وانتشر الإسلام بين اليثربيين ، انتشاراً واسعاً ، وكانت الدعوة تجد بسهولة طريقها إلى قلوب تعمر بالإيمان الصحيح ، وكانت قلوب المسلمين - من أصحاب رسول الله (ص) ، وممن لم يروه بعد ، وقد أسلموا على أيدي صحابته - تتحرق شوقاً لوصول النبي سالماً إليهم ، وقد بلغهم خبر خروجه من مكة ، وجهود مشركي قريش في البحث عنه . وكانوا يترقبون الأخبار عنه ، ويخرجون ، بعد صلاة الصبح ، كل يوم ، إلى ظاهر المدينة ، يتلمسون طلعته ، حتى تغلبهم الشمس ، فيعودو إلى أعمالهم .

وصل محمد (ص) ، مع صاحبه ودليلهما ، إلى قباء ، وهي على بعد فرسخين (١٦ كم) من المدينة ، وأقاموا بها أربعة أيام ، ووصل ، خلال ذلك ، علي بن أبي طالب . وأسس للرسول ، في قباء ، أول مسجد في الإسلام ، ثم اتجه مع أصحابه إلى يثرب .

وكان يوم وصول النبي (ص) يوما مشهوداً ، خرج فيه الجميع : من آمن ومن لم يؤمن ، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة ، ١٦ ربيع

الأول، في العام الثالث عشر للبعثة. وكان سادة القوم يعرضون عليه أن يقيم عندهم، وكان يعتذر، ويقول: «خلوا زمامها، فإنها مأمورة.» وقد دعاه آل النجار، لينزل عندهم، وقالوا: «هلم إلى أخوالك، إلى العدد والعدة والمنعة» فأجاب «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة». ولعل الرسول (ص) أراد ألا يفضل أسرة على أخرى، فتقع المشاكل، فترك للناقة خطامها، حتى بركت عند مربد (موضع يجفف فيه التمر)، كان ليتيمين، هما: سهل وسهيل، ابني عمرو، واشتري المسلمون تلك الأرض منهما، وبنوا فيها مسجد المدينة، ومسكنا للرسول (ص). وأقام محمد، مؤقتاً، عند أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري. وقد اشترك محمد، وصحبه، من المهاجرين والأنصار، في بناء المسجد والمسكن. وكانت المباني غاية في البساطة، وقد خصص قسم مسقوف في المسجد لإيواء الفقراء من المهاجرين، الذين لا يملكون سكناً.

تعتبر هجرة الرسول (ص) إلى المدينة حدثاً من أهم أحداث التاريخ الأسلامي، ولهذا اعتبرها عمر بن الخطاب، في أثناء خلافته، مبدأ التاريخ عند المسلمين، ولم يعتبر ميلاد الرسول، ولا حادثة البعثة، على أهميتها، بداية للتاريخ، وذلك لأن الهجرة أعطت الإسلام وجهاً جديداً، وبدأ بها دور جديد، طوى الدور المكي، الذي كان الإسلام فيه دعوة دينية بحتة، تقوم على عبادة الله وحده، لا شريك له. أما الدور المدني، فقد كان فيه التشريع والتنظيم، فأصبح الإسلام ديناً ودولة، عبادة وتشريعاً. وفتحت حادثة الهجرة باباً جديداً للإسلام، كان منه الانطلاق لتأسيس دولة

الإسلام الكبرى ، بعد أن تم وضع نواتها في المدينة . ويتضح لنا من هذا خطأ الفكرة ، التي تفصل الدين عن الدولة ـ في الدولة الإسلامية ـ فالدولة ، بتشريعاتها وتنظيماتها وتعاليم رعيتها لدى المسلمين ، هي جزء من الإسلام ، لا تنفصل عنه ، منذ نشأتها . وهي قائمة على هذا الدين ، لا باعتباره دينا ، بمعنى للعبادة فقط ، وإنما تقوم على الإسلام ، كنظم وتشريعات وأخلاق . لقد انتهى بالهجرة الدور السلبي للدعوة ، وهو الدور الذي لم يكن للمسلمين فيه حول ولا قوة ، وكان الإسلام يكتفي بالدعوة ، ويعاني أتباعه كل أنواع الاضطهاد والعذاب . وبدأ الدور الإيجابي ، وهو الدور المدني ، الدور الذي أصبح فيه المسلمون قوة ، يردون على الاعتداء بمثله ، الدور ، الذي قام فيه الرسول (ص) بتنظيم الحياة السياسية والاجتماعية في يثرب .

وأصبح المجتمع ، في المدينة ، يتألف من : المهاجرين ، وهم الذين وفدوا إلى يثرب ، تاركين الأهل والمال في مكة ، فراراً بدينهم ، وتنفيذا لأمر نبيهم . والأنصار ، وهم المسلمون من أهل يثرب ، الذين نصروا الإسلام ، ورسوله ، على قريش المشركة . والمنافقين ، وهم الذين تظاهروا باعتناق الإسلام ، وبقيت الوثنية تملأ قلوبهم . واليهود ، وأشهر قبائلهم : بنو قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، مع من تهود من العرب ، وهم قله .

وكان الرسول (ص) يستهدف ، منذ أن حل في المدينة ، إيجاد

وحدة بين سكانها ، تجعل منهم حصناً منيعا ضد أعداء الإسلام . وبدأ بتوحيد صفوف المسلمين ، ونزع جميع الأحقاد من القلوب ، فدعاهم جميعاً إلى التآخي والمؤاخاة ، وكان كل مسلم يؤاخي مسلما : فكان هو وعلي أخوين ، وكان عمه حمزة ، وزيد بن حارثة أخوين . وتآخي المهاجرون مع الأنصار ، إخاء جعل له الرسول (ص) حكم إخاء الدم والنسب . ومن الأنصار من قدم نصف ماله لأخيه المهاجر ، وكثير من المهاجرين أبوا أن يأخذوا من مال أحد ، وفضلوا العمل ، وبدأ نشاطهم التجاري ، ولهم بذلك خبرة ودراية . ومنهم من اشتغل في زراعة أراضي الأنصار ، مزارعة مع أصحاب الأرض . وهناك فئة من المهاجرين المسلمين كانوا على درجة شديدة من العوز ، وقد أسكنهم الرسول (ص) صفة المسجد ، « وهي المكان المسقوف منه » فسموا بأهل الصفة ، وجعل لهم رزقا من أموال المسلمين والمهاجرين والأنصار ، ومن آتاهم الله رزقاً طيباً .

وكان عمل الرسول في توحيد صف المسلمين أول خطوة في تنظيم مجتمع يثرب ، وبناء كيان الأمة ، وسد للطريق على المنافقين في محاولاتهم الإيقاع بين الأوس والخزرج ، وبين الأنصار والمهاجرين . ووجد المنافقون أمامهم مجتمعاً إسلاميا . لا فرق فيه بين مسلم وآخر ، كالجسم الواحد . يساند فيه القوى الضعيف ، والغني الفقير ، تسود جميع أفراده عواطف الحب المتبادل ، والتعاون الصادق ، والوفاء والإخلاص ، والتضحية والإيثار . وكانت الخطوة الثانية من الرسول (ص) تنظيم للعلاقات بين المسلمين وبقية أهل يثرب ، وخاصة اليهود .

وكان موقفه في ذلك موقف الرجل السياسي البارع ، فما أظهر لليهود ، منذ نزل يثرب إلا المودة والاحترام ، على أنهم أهل كتاب . ويظهر ان اليهود كانوا يطمعون في استدراجه إليهم ، خاصة وأن قبلته كانت إلى بيت المقدس . وتطور الأمر بين الطرفين إلى عقد معاهدة ، تعتبر من أهم الوثائق السياسية ، في صدر الأسلام .

وهذه الوثيقة توضح علاقات المسلمين ، فيما بينهم أولا ، ثم علاقتهم باليهود ، الذين منحتهم الوثيقة حرية العقيدة ، وأقرتهم على دينهم وأموالهم ، مع شروط فرضت على الطرفين . وأكدت تحريم الجريمة ، وحرمة المال ، والحياة ، وأرض الوطن الصغير ، الذي كان يشمل المدينة حينذاك ، واعتبرت المسلمين أمة ، وحدتها العقيدة ، فسمت بذلك على المستوى القبلي أو العنصري ، فقد ألف الدين ـ كما تثبت هذه الوثيقة ـ بين المسلمين ، على اختلاف قبائلهم وعصبياتهم ، وجعل منهم وحدة . وقد أقامت هذه الوثيقة بين أفراد الجماعة الإسلامية نوعاً من التعاون والتآخي ، فيسهمون في فداء الأسير ، ودفع الدية ، ومساعدة المحتاجين والمدينين ، والضرب على أيدي المفسدين . ويتعاونون مع اليهود في رد كل اعتداء على المدينة . وكفلت لليهود من الحقوق ما للمسلمين ، وعزلت بها قريش ، فلا تجار ولا تنصر . وكانت هذه المعاهدة فتحاً جديداً في الحياة السياسية ، التي يمارسها

الرسول (ص)، في أول عهده بالمدينة، وكان أهم ما حققته، في المجتمع الجديد، حرية العقيدة، تلك الحرية التي فقدت في مكة، التي اضطهد فيها المسلمون من أجل عقيدتهم، بل هي الحرية التي كانت يومئذ قد فقدت في كثير من أنحاء العالم، وغلب عليها الظلم والطغيان والاضطهاد.

وإذا كان يهود بني قريظة والنضير وقينقاع لم يوقعوا هذه الصحيفة، فإنهم لم يلبثوا ان اتفقوا مع الرسول (ص) على أمور تشبه ما ورد فيها.

وهكذا اصبح الرسول (ص) في المدينة، رئيساً للدولة، فضلاً عن مهمته، كنبي، مرسل لهداية البشر. أما الدولة، التي يرأسها، فهي دولة إسلامية، تطبق تعاليم القرآن الكريم: فالسياسة والحكم والتشريع، في هذه الدولة، جزء من رسالة الإسلام. وتعطينا الآيات المدنية هذا الوجه الجديد في تطور الإسلام ومجتمعه، بين مكة والمدينة: فبعد أن كانت تلك الآيات، في مكة، دينية تعبدية فقط، تؤكد التوحيد، وتحرم الشرك، وفيها وعد بالجنة ونعيمها، للمتقين المؤمنين، ووعيد بالنار وسعيرها، للمشركين والكافرين، إذ بالآيات المدنية، إلى جانب إكمالها للنواحي الدينية في العبادات، تأتي بالمبادىء العامة، والأسس الكبرى في التشريع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. ومن هنا اعتبر المسلمون القرآن الكريم بمثابة دستور لهم، وهو المصدر الأول من مصادر التشريع عندهم.

توطد، في هذه الفترة، مركز الإسلام بيثرب وفرضت الزكاة، كما فرض صيام رمضان، وأصبح المسجد، الذي بناه محمد (ص)

والمسلمون ، مركز نشاطهم الديني والاجتماعي ، وبدأ الأذان ، الذي اعتبر كنداء للمسلمين إلى الصلاة ، يؤديها معظمهم مجتمعين في المسجد ، وكان يقف بلال ، فينادي للصلاة جامعة ، ثم حل محل هذه الجملة الأذان المعروف . وكانت صلاة الجماعة ، بالنسبة للمسلمين ، تقوي روابط الألفة والمحبة بينهم ، ويتداولون فيها بعض شؤونهم ، ويستقصون أخبار بعضهم : فيعودون المريض ، ويسألون عن المسافر ، ومن هنا كان فضل صلاة الجماعة . وكان الرسول (ص) يجلس إلى المسلمين في المسجد ، يعلمهم أمور دينهم ، ويقضي بينهم ، ويتداول معهم أمر الدعوة ، كما يستقبل وفود القبائل اليه . .

وفي هذه الفترة تم زواج الرسول (ص) من عائشة بنت أبي بكر ، وكان قد خطبها ، قبل الهجرة ، وكان يحبها ، ويعطف عليها ، وقد تمتعت بمنزلة لم تتمتع بها زوجة أخرى لرسول الله (ص) ، إلا خديجة . وكثيراً ما كان يظهر لها هذا الحب ، ويداعبها في ذلك ؛ فقد روى أنه قال لها : « ياعائشة ، حبك في قلبي كالعروة الوثقى ، فكانت السيدة عائشة تسأله من وقت لآخر : « كيف حال العروة ، يارسول الله » فيقول لها : «إنها على حالها ، لم تتغير ، ولم تتبدل» . وربما يستغرب البعض من زواج الرسول (ص) بعدة زوجات ، وهو على ماعرفنا من حبه لعائشة ، وتقديره لها ، كما فعل بعض المستشرقين ، ودسوا كلاماً يدل على جهلهم بالإسلام وأغراضه ، ناسين ، أو متناسين ،

الأغراض الدينية والسياسية ، التي تزوج الرسول من أجلها بعض زوجاته ، خاصة وأنه قد جاوز الخمسين من عمره ، وفي مثل هذه السن تتوارى ، أو تضعف ، الغريزة الجنسية . يضاف إلى ذلك أنه كان يحب زوجه ، عائشة ، ويبقى لها مركز الصدارة في الصبا والجمال بين زوجاته ، فلم يتزوج إحدى زوجاته لهذا السبب أو ذاك ، وإنما كانت أغراضه من ذلك أنبل وأسمى . فقد توخى من بعض مصاهراته تجميع القلوب ، وكسب ولاء بعض البيوت والعشائر ، ودخول أفرادها في الإسلام : كزواجه من جويريه بنت الحارث ، سيد بني المصطلق ، وصفية بنت حيي ، سيد بني النضير . وتزوج للبعض عطفاً ورحمة وإعزازاً : كزواجه من أم سلمة ، التي مات زوجها في سبيل الإسلام . وتزوج زينب بنت جحش لغرض تشريعي : إذ كان للعرب ، في الجاهلية ، يحرمون الزواج بزوجة المتبني ، لاعتقادهم أنها تعتبر كزوجة الابن من الصلب ، وكانت زينب هذه بنت عمة الرسول (ص) ، وقد زوجها لزيد بن حارثة ، وأظهرت له كثيراً من الشمم والأنفة ، وشكا ذلك إلى الرسول (ص) مرات عديدة ، إلى أن نزل الوحي بضرورة طلاقها من زيد ، وزواج محمد بها ، لهدم تلك القاعدة الجاهلية ، فقال الله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً ، زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم ، إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا » ، هذا بالإضافة إلى تطبيق مثل الأسلام العليا في المساواة بين المسلمين ، بزواج الرسول الكريم من مطلقة مولى من الموالي . ويمكننا أن نضيف

إلى كل ماسبق ذكره أن الرسول (ص) أراد تحميل زوجاته رسالة الإسلام، وتبليغها، خاصة إلى النساء، وتوضيح ماهن من أمور تتعلق بهن دون غيرهن.

خشي اليهود، في يثرب وما حولها، على مكانتهم، بعد مارأوه من إقبال العرب على الإسلام، ووحدة الكلمة، بين الأوس والخزرج وأزعجهم ذلك، وبعد أن كانوا بالأمس يبشرون عرب يثرب ببعثة نبي يتبعونه، إذ بهم الآن يكيدون لما كانوا يؤمنون به، مما انزل في كتبهم السماوية، أنانية من عند أنفسهم، وكأنه أزعجهم أن يكون النبي المرسل من بني إسماعيل، وليس منهم. وأخذوا يفكرون في موقفهم من محمد ودينه، وأصحابه. لم يخف اليهود على أرواحهم وأموالهم، بعد العهد بينهم وبين محمد (ص)، لكنهم خافوا أن ينتشر الإسلام بينهم، وأن يقل شأنهم، وأن يتبع بعضهم نبيا ليس من بني اسرائيل، وخاصة بعد أن رأوا عبدالله بن سلام، وهو من كبار أحبارهم وعلمائهم يعتنق الإسلام، بعد اتصاله بمحمد (ص)، ويدعو أهل بيته إلى ذلك فيسلموا معه. وبعد أن كانوا يقولون عنه إنه سيدنا، وابن سيدنا، وحبرنا، وعالمنا، إذ بهم ينقلبون، ويلفقون حوله الأقاويل، لا لشيء إلا لأنه اعتنق الإسلام. ووجد اليهود، في بقايا مشركي يثرب ومنافقيها، سندا لهم، ومساعدا، في كيدهم ومؤامراتهم، ضد المسلمين.

وكان لليهود يطمعون في اجتذاب الرسول (ص) إلى صفوفهم في بداية الأمر، لكنهم لم يلبثوا أن رأوا محمدا (ص) يزداد بأصحابه قوة وينتشر دينه بين العرب، فخابت آمالهم، لاسيما عندما رأوه يحول

قبلة المسلمين من جهة المسجد الأقصى، الى جهة الكعبة، بعد ستة عشر شهراً من هجرته إلى يثرب، وذلك بعد نزول الآية: «قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم، فولوا وجوهكم شطره». وتضايق اليهود من تحويل القبلة وحاول بعضهم إقناع النبي (ص) بأنهم يتبعونه، إن هو رجع إلى القبلة الأولى، فما وجدوا منه إلا ثباتاً.

وقد لجأ اليهود إلى كل سلاح من الأسلحة، التي عرفوا بها: من الدس، والدعايات، والتآمر، وإثارة الجدل، حتى أنهم دفعوا بمن أظهر الإسلام من رجالهم وأحبارهم، ليفتنوا المسلمين عن دينهم، بإلقاء الأسئلة، التي يتوخون منها بذر بذور الشك في قلوب المسلمين، حتى أنهم، على الرغم من ايمانهم بوجود الله، صاروا يتساءلون «من خلق الله؟» وحاولوا إثارة الفتن بين المسلمين، وكانوا يتآمرون مع المنافقين على تحقيق غاياتهم، حتى أمر محمد (ص) بإخراجهم من المسجد وقد اجتمعوا فيه، يتهامسون ويتآمرون.

وقد وصف القرآن الكريم وضعهم هذا بقوله: «ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرسل، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم، استكبرتم، ففريقاً كذبتم، وفريقاً تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف، بل لعنهم الله بكفرهم، فقليلا ما يؤمنون. ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم. وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما

جاءهم ما عرفوا ، كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » بل وصل الأمر ببعضهم إلى الاستخفاف بعقائد المسلمين : فهذا أحد اليهود يتعرض في حديثه مع أبي بكر للإسلام ، ويثير غضبه بقوله : « والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه ، كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه أغنياء ، وما هو عنا بغني . ولو كان غنياً عنا ، ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم . » وهو يشير إلى قوله تعالى « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » . فيضربه أبو بكر ، ويقول له : « والذي نفسي بيده ، لولا العهد الذي بيننا وبينكم ، لضربت رأسك ، يا عدو الله » .

بل حاول بعض اليهود فتنة الرسول (ص) ، وسار إليه بعض أحبارهم وأسيادهم ، وقالوا له : « إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإنا إن أتبعناك ، اتبعك اليهود ، لم يخالفونا . إن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، فنحتكم إليك ، فتقضي لنا ، فنتبعك ، ونؤمن بك » . فنزل على محمد (ص) قول الله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما انزل الله إليك ، فإن تولوا ، فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ »

وقد عمد اليهود إلى محاولة إثارة الأحقاد بين الأوس والخزرج ، وتذكيرهم بما كان بينهم ، وخاصة بما أصاب الخزرج من هزيمة يوم

بعاث ، حتى أنهم نجحوا في بعض محاولاتهم ، وبدأ النزاع فعلا بين فئتين من الأوس والخزرج. وقد تدارك محمد (ص) الأمر ، فذكرهم بإسلامهم ، الذي ألف بين قلوبهم ، فزال ما بينهم ، وعانق بعضهم بعضاً ، واستغفروا الله مما بدر منهم .

لم يمتنع لليهود ، على الرغم من وحدانية الله ، التي تجمع بين اليهودية والإسلام ، أن يشهدوا لمشركي قريش بأن وثنيتهم خير من دين محمد (ص) ، وأن تعدد الآلهة ، المخالف لعقيدتهم ، أفضل من ديانة التوحيد ، التي جاء بها محمد (ص) ، حسداً من عند أنفسهم ، وأنانية يريدون من وراثها أن يظلوا ، حسب زعمهم ، شعب الله المختار ، وأخذوا يمكرون برسول الله (ص) ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . وصار لليهود يتهمون كل من أسلم منهم بمختلف التهم ، فيقولون : « ما آمن بمحمد ولا أتبعه ، إلا أشرارنا ، ولو كانوا من أخيارنا ، ما تركوا دين آبائهم ، وذهبوا إلى دين غيره » .

أما رهبان نجران - وهي معقل من معاقل النصرانية باليمن - فقد سمعوا بظهور النبي محمد (ص) ، وبما يدور بينه وبين اليهود من جدل ونقاش ديني ، فرغبوا في المساهمة في هذا النقاش ، علهم يخرجون ، وقد فازوا على منافسيهم ، اليهود . وربما كانوا يطمعون في كسب الرسول (ص) إلى جانبهم ، وأوفدوا منهم ستين رجلا ، بينهم من الأساقفة من تعمق في دراسة المسيحية .

والتقى في المدينة ممثلو الديانات السماوية الثلاث . اليهودية ، والمسيحية ،

والإسلام. أما اليهود، فأنكروا نبوة عيسى ومحمد، وحملوا على عقائد النصرانية، وكفروا بعيسى وإنجيله. وأما النصارى، فقالوا بألوهية عيسى، وللتثليث. ثم سألوا محمداً عمن يؤمن بهم من الرسل، فقال: «آمنا بالله، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لانفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون». وكان محمد ينكر عليهم ما يثيرونه من شبهات حول وحدانية الله، وأنهم إنما يحرفون الكلم عن مواضعه. ذلك لأن ما جاء به موسى وعيسى إنما يتفق، في جوهره، مع ما جاء به محمد (ص). ووحدانية الله هي المبدأ الخالد في الرسالات السماوية. وكانت كلمة الفصل منه لهؤلاء تدور حول هذا المبدأ الأزلي، وهي في قوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولانشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا، فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

وعند ما ذكر الرسول (ص) لهؤلاء الأحبار والرهبان انه على ملة ابراهيم، ادعى كل من الفريقين أن ابراهيم كان على دينه: فقال اليهود: «كان ابراهيم يهودياً». وقال النصارى «كان إبراهيم نصرانياً». فجاء جواب الإسلام، في قوله تعالى: «يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم، وما أنزلت التورات والإنجيل إلا من بعده، أفلا تعقلون؟ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم، وأنتم لاتعلمون، وما كان إبراهيم يهودياً، ولا نصرانياً،

ولكن كان حنيفاً مسلما ، وما كان من المشركين . »

أخفق هذا المؤتمر الديني ، في الوصول إلى نتيجة حاسمة ، وعاد اليهود إلى منازلهم ، وعاد وفد نجران إلى بلده . ولكن النصارى عادوا وفي ذهنهم فكرة طيبة عن محمد ودعوته ، بدليل أنهم طلبوا منه (ص) ان يبعث معهم رجلا يحكم معهم في أمور إختلفوا فيها ، فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح .

openeikandl.com